المستشرقون والقرآن*

(عمر لطفي العالم)

قراءة محمد غشام

يقول المؤلف إن محاولاته جاءت كردة فعل طبيعية على القوى التي تتجاذب الساحة الفكرية وهي ستنصب على الجانب الأهم من مكونات الثقافة العربية الإسلامية متمثلاً في عزها ورمزها وضمان استمرارها: القرآن الكريم.

لقد كان القرآن الكريم أول (كتاب ديني مارس النقد بقوالبه وأصوله العلمية). وكان أول من كشف عن عورات العقائد، وكان المستشرقون أول من شهد له بذلك السبق. فالمسلمون كما يقول المستشرق (باريت) هم الذين بدأوا الهجوم فليتحملوا تبعة ذلك.. ويورد نظرة المستشرق الفرنسي (كلود كاهان) الصائبة إلى الإسلام والتي تقول: إن الإسلام لم يتبن نظريات معينة، ولكن جاء حاملاً معه نظاماً مصححاً فحيثما صادف الخطأ صححه وقوّمه وأتى بالبديل الأفضل.

وبمواجهة الحملات الحاقدة على الإسلام والقرآن فإن التفسير المنطقي لذلك، وعندما تكون العقيدة، أيّة عقيدة شمولية عالمية عقلانية النشأة والروح والتوجه كالإسلام، بقدر ما تسمح بوجود ردات فعل وبنحو أفكار راديكالية، ولذا يعتبر (عمر لطفي العالم) تعدد المدارس الفكرية في الأسرة الإسلامية الواحدة علامة صحة وعافية ومدعاة فخر واعتزاز، لا دليل خور وعجز وضعف.

---

* عمر لطفي العالم: المستشرقون والقرآن، مركز دراسات العالم الإسلامي، مالطا 1991.

الاتجاهات العامة للاستشراق

إن الاستشراق حركة مقرها الغرب وتتجه بأنظارها إلى الشرق. ولقد اقترف الاستشراق كثيراً من الافتراءات التي تدعو إلى السخرية من مثل: إن النبي (ص) اقتبس دينه كله أو بعض من الديانات السماوية الأخرى. ولقد تصلّبت في أذهان المتعصبين من المستشرقين فكرة (الحاد)! النبي (ص). وقد اعتمد أحدهم الإيطالي (بطرس فينيرابلس) نظرية كانت بمثابة شرارة البدء الأولى تقول: إنه لا يمكن محاربة (إلحاد) محمد بنفس السلاح الأعمى، بل بقوة الكلمة في تعاليم المحبة المسيحية. وقد اشترط لتحقيق ذلك فهم (الخصم) بصورة فعلية. ولقد برزت أسماء مستشرقين لعبوا دوراً مسيئاً لصورة الإسلام المشرقة ومنهم (لولوس) كما كان في موقع العداء الأول إذ إنّه حرَّض العالم المسيحي وشجَّع على تسيير الحملات الصليبية. وما يميز حملات المستشرقين هو الروح الغالب على كل دراساتهم وهو يقسم بالكراهية والعداء والدسّ على الثقافة العربية ـ الإسلامية.

وإنّ الرد المنهجي العقلاني الذي توخّاه المؤلف على مزاعم الزاعمين أن الإسلام إنما هو (سطو) على الديانات الأخرى يستمد المؤلف مما صرّح به مستشرق موضوعي هو (يوهان فوك) إذ قال: إنه لا يمكن تقسيم القرآن إلى شذرات، كلمة، سورة وقصة وآية، بحيث أصبح الكتاب وكأنه لوحة (فسيفساء) وأما من حيث الزعم بالأخذ عن الديانات الأخرى فهو تشابه الأمر على أعداء الإسلام سواء عن ضحالة فكرية أو عن قصد وتعمية. وما ذلك التشابه إلاّ دلالة على وحدة المصدر (الله الواحد) وأي توافق أو تشابه هو في الواقع دليل قوي لصالح الإسلام لا ضده.

أما اهتمامات المستشرقين الأخرى فقد كانت تتناول الجوانب الجمالية والأدبية واللغوية في القرآن أمثال (هارمر بورجشتال) و(فريدريك روكرت) و(جوته). وأما مواقف (جوته) فقد كانت متميزة، وقد اتخذ الشاعر الألماني موقفاً إيجابياً نبيلاً من الإسلام ومن شخصية الرسول (ص) في تآليفه وأشعاره، ونقده الأدبي، على عكس ما رآه النقاد الغربيون من دواعي الملل،

إذ أن النبي لم يرسل برسالة شاعر للتفنُّن في القول والتنويع في ضروب الكلام، وعرض الصور المزوّقة من الأخيلة والأوهام لاستحداث اللذة واستخفاف الظرف على النحو الذي يفعله الشعراء. بل أن محمداً ـ بنص القرآن ـ بعيد عن هذا الوصف. إنه نبي مرسل لغرض مقدّر مرسوم. وهذا الغرض هو تبليغ الشريعة وجمع الأمم لينضموا تحت لوائها.

وما يمكن استخلاصه عن منهجية المستشرقين الغربيين وعلى رأسهم (تيودور نولدكه) أنهم اتبعوا الاتجاه العقلاني من البحث، ولكنهم بحثوا في المثالب والسلبيات، الثغرات والهنات، وفي تاريخ حضارة، ودين، طالما الإنسان هو الأداة وحقل التصنيف، وجه آخر لم تضعه العقيدة، بل الإنسان نفسه، يصححه الدين ويقوِّمه، لكنه يحسب في النهاية على تراث الأمة وتاريخها.

فيما يختص بنبوة النبي محمد (ص) فإن المؤلف العالم يسلم تسليماً تاماً بالنبوة، وهي مسلمة غير قابلة للنقاش والنظر. ما ما أراد المؤلف قوله وتصحيحه فهو بعض المفاهيم الخاطئة من خلال الرأي وضده. وتشخيص جانب من أزمة ساهمنا فيها بقدر وفير حين قدمنا للعالم مادة مشوشة وروايات مختلقة حول السيرة النبوية. ويؤيّد المؤلف نظرية كون النبي (ص) أمياً، لم يكتنز ثقافات وأفكار الأمم والأديان السابقة، بل كان علمه لدُنياً ووحياً يوحى.. وقد أورد بعضاً من الآيات تؤكّد على معنى الوحي والإلهام.. ﴿وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه..﴾.. ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً من الشجر ومما يعرشون﴾. وأما دلالة الوحي في الرسالة فتنص عليها الآيات: ﴿فأوحى إلى عبده ما أوحى﴾.. ﴿وأنه لتنزيل من رب العالمين، نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين﴾.

ومن حيث الوحي فقد أشار المؤلف إلى ما استخلصه المستشرق (غرايف) وآخرون من خلال دراسة ظاهرة الوحي كما جاءت في كتب السيرة، إلى أن تلقّي الرسول ثمّ عبر قناتي السمع والبصر. واستشف من ذلك برهاناً على (شذوذ) ظاهرة الوحي في الإسلام عن غيرها من الرسالات. ولكن القرآن لدى تقديمه مادة الوحي، لم يقصر ظاهرة هذا الاتصال الغيبي الخفي

بين الله وأصفيائه على تنزيل الكتب السماوية بوساطة ملك الوحي، بل أشار في آية واحدة إلى صور ثلاث من صور الوحي: أولاها إلقاء المعنى في قلب النبي، وثانيها تكليم النبي من وراء حجاب كما نادى الله موسى من وراء الشجرة وسمع نداءه، وثالثها هي: (الوحي) بمعنى إلقاء الملك المُرسَل ما كُلِّف به على النبي، وفي أيِّ صورة بعث بها الوحي. وبذلك تحدثت الآية الكريمة: ﴿وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يُرسِل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليٌّ حكيم﴾. وبذلك تنتفي أية تفسيرات وأوهام مشككة في حقيقة الوحي. وأبلغ ما يوصد أبواب التأويلات الباطلة والمغرضة هو ما قاله الباحث الدكتور مصطفى محمود: . . وإذا كانت هناك معجزة في الموضوع. . فإنها لم تكن شق بحر أو إحياء ميت، أو شفاء أبرص، أو إخراج حيّة من عصا، وإنما كانت المعجزة هي ذات محمد نفسه التي جمعت الكمالات وبلغت في كل كمال ذروته.

وجواباً على مسألة (قصص القرآن) أهي محاكاة دينية أم حقيقة تاريخية، يعود بنا المؤلف عمر لطفي العالم إلى مؤلفات مستشرقين أمثال هاينز شبيار في كتابه (القصص التوراتي في القرآن) وفحواه أن كل الدراسات التي أجريت دلّت صراحة على التصورات غير العربية التي (اقتبسها) الرسول من غيره، سواء في مواجهاته التشريعية أو السياسية، وذلك في ضوء الدراسات النقدية التي وضع أسسها المستشرق المعروف (غولدزيهر) من خلال دراسة للتفاسير. وهذه القاعدة تنطبق على معالجة القصص التوراتي في القرآن وكما زعم المستشرق (جايجر) فإن هناك تأثيرات لليهودية على الرسول واضحة. وجاء في تصريحه: «إن دراسته افترضت اقتباس الرسول لكثير من التعاليم والمفاهيم والآراء منذ زمن بعيد. وقد ضمنها قرآنه بما يناسب التصورات التي كانت سائدة في عصره، وأن قصص العهد القديم يحتل الجانب الأكبر من القرآن».

وأما رد المؤلف على هذا الزعم الضيق فقد جاء من خلاله عرض الحجة بتفسير الآية الكريمة ﴿قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾. . وتفسيره هو: لو أن المجيب لم يكن نبياً مرسلاً ـ وهذا شيء لا يفهمه المستشرقون ـ لما جاءت في

الجملة الواحدة وعلى التوالي أربعة أدلة قاطعة:

- أن الرسول لبث فيهم عمراً.
- وأن نفسه لم تنازعه على استمالة قومه بكتاب آخر لأنه صادق.
- وأنه يخاف عذاب يوم عظيم.
- وأنه - الرسول - بوحي من ربه قال: ﴿.. ما تلوته عليكم..﴾ ولم يستعمل أي فعل آخر مما يغرب عن هذا الفعل من قاموس العربية الحافل بالمفردات.

وفيما يتعلق بالأمثال في القرآن الكريم فإن المستشرقين يصرّون على أن التغيير الطارئ على أسلوب الأمثال قبل وبعد الهجرة إنما يعود إلى العالم الشخصي، أي استجابة لمواقف معينة، بشرية خالصة، أملتها ظروف العمل (السياسي والاجتماعي) للمسيرة النبوية. والتعقيب الموضوعي على هذا الزعم هو أن: النبي (ص) «يدري». فأي نوع من الدراية تلك؟ دراية بشرية سبقت تلك الأمثال فأعدّ لها إعداداته وهذا هو المراد من قوله على الراجح، أم أنها دراية بالوحي وهي ما لم يُردها الكاتب!؟

وثانياً: الأفكار الدينية كانت غريبة على البيئة العربية فأي أفكار تلك، أو لم يقروا هم بأنفسهم أن الجزيرة عرفت الحنيفية والديانتين ما قبل الإسلام؟

ثالثاً: القسم الأكبر من أمثلة القرآن لا يفتقر إلى الإصابة والوضوح، وأن الرسول (ص) لم يكن يملك أي دليل مادي أو حصانة أو تأثير..

رابعاً: أن الأمثلة مستقاة من حقائق ومُسلّمات، دوره فيها كان «تقريرياً» وبعضها ناجم عن الانطباعات الشخصية.

خامساً: والأمثلة الهجومية كانت موجهة إلى اليهود بشكل خاص.

ويبقى القول إن الأمثال في كتاب الله قد ضُربت للعبرة ولمن يعتبر، وما أكثر العِبر وما أقل الاعتبار!

ومن المعلوم أنه في تاريخ الاستشراق تباينت الآراء والأحكام حول شخصيات المستشرقين ومآربهم ودوافعهم التي زيّنت لهم المواقف والأفكار التي اقترفوها أو احتفلوا بها. وعلى الأخص الأبرز منهم (تيودور نولدكه) ولقد

تسنّم مجداً على حساب اللغة العربية والقرآن الكريم والنبي محمد (ص)، وهو برأي المؤلف الباحث لا يستحق ذلك المجد حتى وإن كان ذلك لا ينفي ثقافته ولا يلغي مكانته ولا يحطّ من قدره العلمي إلا بالقدر الذي حاول فيه النيل من شأن القرآن، والغض من نبوّة النبي، والاستهانة بالعربية، محدثاً بذلك خرقاً لا يريد أن يُرتق، في كتابه الشهير (تاريخ القرآن) ومباحثه في الدراسات السامية، ولقد لقب بشيخ المستشرقين.

وتحرُّراً من عواصف وغبار الثناء المفرط المغالي التي أثيرت حول اسم (نولدكه) كما جاء في قول المستشرقين (فوك) وهور جرونيه، وفي قول الدكتور ميشال جحا، والدكتور صلاح الدين المنجد، فإن الباحث لطفي العالم يعتبر تلك الآراء قابلة للردّ والنقاش ومجاله الحركي متّسع بحيث يحتمل الأخذ والرد وهي آراء تنطوي على ترديد أعمى ومغالطات مقيتة..

أما من حيث كتاب (نولدكه) (تاريخ القرآن) ـ حسب رأيه ـ فهو عمل نموذجي استحق به عن جدارة مكانة علمية رقيقة، وأصبح الكتاب أحد المصادر الهامة التي ربما لا يستغني عنها باحث، وهو عرض تاريخي مفصّل لكل المسائل والموضوعات التي تتصل بالقرآن الكريم منذ نزول الوحي وحتى صدور آخر طبعة للقرآن الكريم في عصر المؤلف.. ولقد ملك كل أدوات البحث، غير أن تقييم الموضوع لا ينبع من الانبهار الساذج بعمق وتنوع وغنى الشخصية الباحثة، بل من التتبع الموضوعي الأمين لمراحل البحث ذاته، وفي الدراسات القرآنية من استخلاص النتائج.. وأما هدف المؤلف فيوجز بكلمتين: استشفاف الكفاية المنهجية، واختبار استعداد الملكات الخاصة على خلع الإهاب الغربي، وتقمص الشرف تقمُّصاً روحياً وفكرياً ونفسياً كاملاً، ثم معاينة مدى تطبيق النتائج، في ضوء المنهج والمعرفة، والاستعداد في الاندماج، وفي نزاهة الحكم أولاً وأخيراً.. وأن ما يثير التساؤلات حول مواقف (نولدكه) هو أنه ذكر روايات الخلاف والاختلاف والخصام، ولم يرو إلى جانبها أخبار الألفة والوئام والأخاء والاحترام في الرجوع إلى الرأي بين علماء المسلمين..